قدر الله، الإمام زيد بن علي

محمد فرحات

قدر الله، الإمام زيد بن علي

رواية

كُتُبنا
KOTOBNA

إهداء...

إلى روح أبي الذي ما أن قرأت عليه مقتطع هذا النص بفراش محنته الأخيرة، إلا وأجهش بكاء. كم تمنيت أن تقرأ لي كتابا...وكم تمنيت أن أرضيك، ولكن الزمن المفقود دوما قدرنا.

شكر خاص...

إلي سيدي الأستاذ ممدوح بدران، فكم بذلت من جهد، وكم أسديت من نصح.

"1"

الاثنين الأول من ربيع أول، السنة الحادية عشر من الهجرة-المدينة-.

- يا أنس...

-نعم، يا علي...

-أين رسول الله؟

-صلى الفجر لتوه ، رأيته متوجها إلى بقيع الغرقد...

لم يحر الإمام علي ردا، سار باتجاه البقيع يريد رسول الله. .."ياله من حلم جثم على صدري الليلة بأكملها...من يا تراه هذا السابح في أنهار الدم ...يقترب من الشاطئ، يمد يده مناديا يا أبه، فأمد يدي، فتخطفه الأمواج بعدما تلامس يده يدي ...يناديني فأمد يدي ...فتخطفه أمواج دم قاني له رائحة المسك ...ما أشبهه بولدي الحسين ...حتى تعالى بكائي ...فتوقظني فاطمة...

ها هو رسول الله يجلس بين قبور أصحابه، "

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا رسول الله .

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يا علي لم

آتيكم آل البيت بغنم بل آتيتكم بالرزء تلو الرزء حتى تلقوني على الحوض ...

-رضينا يا رسول الله بقضاء الله...

-يا علي أما السابح في الدم فزيد بن الحسين ولدي ...يقتل ولدي الحسين، ويصلب ولد ولده ابني زيد ...

تذرف عيناي رسول الله بالدموع حتى تبتل لحيته، يتذكر علي حلم ليلة أمس...

-وترضى يا رسول الله بقتل ولدك؟

-يا علي، أرضى بحكم الله في ولدي ...

يبكي علي لبكاء رسول الله حتى يعلو نحيبهما وتردد الأكوان صدى بكاء رسول الله وصفيه ...

-يا على، لي دعوتان، أما الأولى فاليوم، والثانية إذا عرضوا على الله عز وجل، ثم رفع يده إلى السماء ...

-يا علي أمن على دعائي...

يرفع علي يديه إلى السماء ويدعو رسول الله...

- اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، وسلط بعضهم على بعض، وامنعهم الشرب من حوضي...

وكأن الأرض أنبتته، رجل أبيض الوجه، حالك شعر الرأس، يملأ ضوعه جنبات البقيع؛ رفع يده إلى السماء باكيا...

-قد أجيبت دعوتكما ...

يختفي الرجل فجأة كما ظهر فجأة.

-يارسول الله من هذا؟

-إنه جبريل يا علي ...

"2"

فجر العاشر من المحرم للعام الحادي والستين هجرية، معسكر الإمام أبي عبد الله الحسين -كربلاء- .

يفرغ الإمام من صلاة الصبح، ويستغرق وعترته وأصحابه فى تسبيح خافت، ترددده طيور الفرات حتى ينسل ضوء العاشر من المحرم، قاني كلون دم منساب، يلون كل مفردات الكون بلونه المشتعل، يخاطب أبو عبد الله الحسين جنده وعترته...

-قد عقد القوم عزمهم، وهم لا يريدون إلاي. فأرى أن تتخذوا بقايا الليل جملا، وتنسلوا بذرية نبيكم، فأنتم لم تتبعوني على قتال، وها قد خذلنا القوم، وقل الناصر ...

فيرد إبراهيم بن الحصين الأسدي بصوت أشبه بصوت الرعد ...

-لا والله يا ابن رسول الله ...وماذا نقول لرسول الله إذا لقيناه يوم لا ينفع مال، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم...نقول فررنا، وتركنا ابنك يقتله القوم...،

فقاطعه أبو ثمامة عمرو بن كعب ...

-بل نقاتل القوم حتى نقتل بين يديك ...فيقبل الله

ورسوله صلى الله عليه وسلم عذرنا...

فيقول بشر بن عمرو الحضرمي-باكيا- ...

- والله لا نغادرك يا ابن بنت رسول الله إلا عند حوض رسول الله ...

ويضج الصحب، والآل في نحيب تهتز له جنبات الكون ...

يقول الحسين : فليكن قدر الله ...

يخرج الإمام من فسطاطه لفسطاط أخته السيدة زينب، يقترب من باب فسطاطها فيسمع شكواها إلى الله ...

-اللهم قد تمالأ القوم يريدون شأفة آل نبيك، واقلة ناصريك ياحسين، واكثرة خاذليك يا أخي...اللهم لك العتبى حتى ترضى ...اللهم إن كان هذا قضاؤك فقد رضينا بقضائك ...

يستأذن الإمام في الدخول...فتسارع السيدة زينب في مسح دموعها ...وتأخذ خرقة مبللة، وتضعها على جبين علي ابن أخيها ...

-ما حال الفتى يازينب؟

-تأكله الحمى يا أخي طيلة الليلة...مازال القوم يمنعوننا الماء؟

-نعم،...يشرب الكلاب من ماء الفرات، ويمنع أبناء رسول الله...

-لا حول و لاقوة إلا بالله...

يمس الإمام جبهة ولده علي...

-لك الله يا ولدي...فليرحم الله ولدك المصلوب...أشبه الخلق بي، وأحفظ الخلق لعلوم جده رسول الله...لنا الله يا ولدي...

"3"

الإثنين، ربيع أول للعام السادس و الستين من الهجرة-المدنية-...

يتنفس الصبح بعطر يملأ أجواء المدينة المنورة...يلوح النور في أقصى الشرق... يدب كوليد خرج لتوه من رحم السماء...لينير غلسة الليل...يلهب عمر الجعفري ظهر دابته فسوف تفوته صلاة الصبح خلف الإمام علي زين العابدين بن الحسين، عليهما السلام؛ ولقد حمله أميره المختار بن عبيد الله الثقفي هديته الغالية، جارية سندية طالما تحدث عن ثمنها أهل الكوفة فلقد بذل فيها المختار ثلاثين ألف درهم، وعزم عليه أن يسلمها لسيده الإمام زين العابدين قاطعا المسافة من الكوفة إلى المدينة بلا توقف إلا لضرورة...وهاهو نخيل المدينة يلوح قريبا من ناظريه...يدخل عمر الجعفري المسجد النبوي بهديته...وإذا بصلاة الصبح تقام، ويتقدم الإمام علي زين العابدين بطمأنينة إلي المحراب ليصلي بالقوم...يكبر الإمام، ويشرع في قراءة عذبة، ويركع ثم يقوم داعيا ثم يشرع في سجود يطول، ويطول، فيرى الإمام النبي في سجوده، يأخذ بيده إلى الجنة، ويشير إلى حورية من حواريات الجنة ويقول :-

- يا علي بن الحسين هذه زوجتك...سم ولدك منها زيدا...

يقوم الإمام من سجدته الطويلة، ويشرع في قراءة الفاتحة، وسورة الكوثر ثم يركع، ويسجد، ويسلم، ويشرع في أذكار الصلاة، ويرمي ببصره إلى مؤخر المسجد، ويقع طرفه على عمر فيشير إليه بالقدوم فيقع عمر على يديه مقبلا...

-ما الذي جاء بك يا عمر؟

-جئتكم يا سيدي بهدية سيدي المختار الثقفي، يقرءك السلام، ويرجو قبول هديته، جارية سندية ..."حوراء"

-تلوح ابتسامة على شفتيه، ويردد...حوراء هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا...هدية مقبوله يا عمر ...وما أخبار قيام المختار؟

- دانت له الكوفة، والبصرة، وتحالف مع سيدي إبراهيم الأشتر؛ وهو يحكم الآن من قصر الكوفة، ويسألكم الدعاء ياسيدي ...

-اللهم بارك ولدنا المختار ووفقه، اللهم انصره كما نصرنا

آل بيت محمد ...

"4"

يوم الخميس...السادس والعشرون من جمادى الآخرة العام السابع والستين الهجري-المدينة-...

تسارع الشمس اليوم في شروقها، كانت على ميعاد خاص مع الأرض، تدنو بشعاعها على قبة المسجد النبوي تقبلها بشوق، وكأن اليوم هو ميلادها الأول، يوقظ ضوء الشمس الأول طيور المدينة المنورة فتأخذ في التسبيح هائمة في ملكوتها العلوي...

يجري قنبر مولى زين العابدين متجها نحو المسجد يريد سيده، ليدخل قنبر يجاهد في التقاط أنفاسه.

- سيدى وضعت سيدتي حوراء حملها ذكرا نبيلا.

-الحمد لله يا قنبر ناولني مصحفا...

يأتي قنبر بالمصحف فيفتحه زين العابدين وينظر لأول آية تصادفه فإذا هي قول الله تعالى"فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما."

ثم فتحه ثانية فإذا أول الورقة " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم، وأموالهم

بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون، ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة، والإنجيل، والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله ...“

ثم قال يا قنبر ”هو والله زيد ...هو والله زيد...يا قنبر أنت حر لوجه الله“.

"5"

العام العاشر بعد المائة هجرية - المدينة المنورة-.

- ها قد أخذت علوم أكابر التابعين يا زيد، وتوجت بعلوم أبيك الإمام السجاد، وأخيك الإمام الباقر، والإمام الصادق. وقد فقت كل تلاميذي فى علوم الكلام، والفلسفة، و المنطق. وأرى أجلي يقترب يازيد...

-أطال الله عمرك ياسيدي واصل بن عطاء...

-يا زيد " فإذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة، ولا

يستأخرون" ثم من يازيد سيد من؟!

ينكب زيد ليقبل يد واصل بن عطاء فيسبقه، واصل إلى تقبيل يده...

-هكذا أمرنا مع أهل بيت نبينا عليه الصلاة والسلام...

يبكي زيد في صمت فلقد تدهورت أحوال أستاذه الحبيب واصل بعد طول رفقة ومحبه...

-أعلم يا زيد أن علما بدون عمل هو الهلكة ثم الهلكة، وملاك الأمر هو الأخذ على يد الظالم تأمره وتنهاه، فلو استمر في غيه فالخروج هو واجب وقت الإمام...

-نعم يا سيدي متى توفر الظرف ...

"6"

مائة وعشرون هجرية -المدينة المنورة-...

يتصدر الإمام زيد مجلس علمه وسط كبار طلابه...وقد تنافست شعيرات بيضاء لتظهر في لحية الإمام، تعلن راية الأربعين من عمره.

-يا أبا حنيفة اتل علي أسماء تلاميذي الذين كلفوا بنسخ كتبي ...

-نعم، سيدي الإمام...

-محمد بن سلمه ...

-نعم يا إمام الحمد لله انتهيت من نسخ كتابكم "المجموع الفقهي."

-أحسن الله إليك يا ولدي...

يقوم ابن سلمة ليسلم الكتاب لسيده زيد، ويقبل يده...

-الزهري...

-نعم، يا إمام هذا كتاب "المجموع الحديثي."

يسرع الزهري لتسليم الكتاب، وتقبيل يد الإمام

-يا زهري ستكون إمام عصرك...فاستوص بحديث نبيك وتنقيته خيرا...

-أبو جعفر ابن أبي زياد الأحمر...

-نعم سيدى الإمام هاكم كتاب"تفسير غريب القرآن."

-سعيد بن خيثم...

-نعم سيدى قد انتهيت لتوي من نسخ كتاب قراءة جدكم أمير المؤمنين الإمام علي للقرآن...يسلم الكتاب للإمام ...فيقوم الإمام لاستلام الكتاب وتقبيله...

-شعبة...

-نعم...هذا كتاب "إثبات الوصية."

-ابن أبي الزناد...

-نعم ...نسخت كتابكم "مدح القلة، وذم الكثرة."

يبادر أبو حنيفة بتقبيل يد الإمام زيد...

-سيدي الإمام أما أنا فقد جمعت قراءتكم للقرآن في كتاب وسميته "النير الجلي في قراءة زيد بن علي."

-بارك الله جهدكم يا أبا حنيفة...

يفتح الإمام زيد الكتاب، ويشرع في مطالعته...فيدخل المجلس إسماعيل السدي.

-سيدي الإمام يستأذن كبير الشرطة للدخول إلى مجلسكم ...

-فليتفضل...

-يا إمام والله كم وددت الجلوس تحت أقدامكم متلقيا علومكم، ولكنه العمل، والسهر على حفظ مدينة جدكم عليه الصلاة و السلام ...

-باركك الله...ما الأمر؟

-يطلبكم أمير المؤمنين هشام بن عبدالملك للمثول بين يديه في القصر الأموي بدمشق...

-ما لنا والقصور ...!، ولتكن مشيئة الله.

"7"

مائة و عشرون من الهجرة - القصر الأموي -دمشق-

"نعم أذكرك يا أبي، حينما أكلك المرض، وأضنتك الحمى،تسير على أشواك العنت، والأسى، تجاهد دموعك...

أن تسيل أمام جحافل النفاق، ماذا بعد قطع الرقاب يا علي، رأس طالما قبلها جدك يا أبي، ومستها يده الشريفة،ينكتها القرد بمخصرته، تجاهد عمتك العقيلة زينب وحدها، لم يبق من ذرية محمد سواك، "تسبق رقبتي رقبته يا ابن زياد، وتعيرك العرب وتعير سيدك يزيد القرود ، وهل بقيت معرة لم تلصق بكم آل حرب بني عبد شمس"، تسقط رقية أسى، و تنوح سكينة حزنا، وآل بيت محمد في قيود الأسر..."ماذا يريد الطاغية هشام مني يريد تكرار ما حدث...فلتكن مشيئة القدر..."

ينادي الحاجب على باب هشام بن عبد الملك...

-زيد بن علي بن الحسين بن علي، يستأذنكم المثول بين يديكم سيدي أمير المؤمنين.

يدخل الإمام، ينزل هشام من عرشه مستقبلا الإمام، معانقا ومرحبا...

-أهلا بابن العم الكريم.

-السلام على من اتبع الهدى...

يضحك هشام بمجون واضح...، ويأخذ بيد زيد، ويجلسه بجانبه...

-الهدى والسلطان يفترقان دائما يا زيد...

-السلطان بغير هدى بغي يفسد الأرض...

-والهدى من غير عسف أكثر إفسادا...دائما بنو هاشم وبنو أمية، تدعون إقامة رايات الهدى، ثم لاتستقيم لكم الأمور، فيولي الله من يقيم الدنيا من بني أمية...

-وهل ادعى جدي صلي عليه وسلم هدى، ونبوة ولم يقم دنيا...

يهمس هشام في أذن زيد...

-نبوة؟!!...(يرتج في ضحكة ماجنة عنيفة)

(يرد زيد بحدة، وغضب متصاعد)

-وماذا تظنها يا هشام؟!!

-هي السياسة يا ابن عمي...السياسة التي لم تجيدوها يوما ...

-بل هو نور النبوة الذى لم تعتقدوه يوما ...!! ما أشبه اليوم بأمس، وما اشبهك بيزيد ...(يقاطعه هشام ضاحكا)

-وما أشبهك بعمتك زينب يا زيد...هنا وفي هذا البهو يذكر الزمن كسرتكم في ذل الأسر...الحمد لله الذى أعزنا وأذلكم...

يقوم زيد مغاضبا...

-أعزنا الله بنبيه ودينه، فمنا أسد الله حمزة، ومنا الكرار على، ومنا الطائر جعفر، ومنا سيدا شباب الجنة الحسن و الحسين، ومنا السجاد زين العابدين، ومنا ..(يقاطعه هشام مستهزأ)

-ومنكم البقرة...

اشتد غضب زيد حتي كاد يخرج من إهابه...

-يسميه النبي الباقر، وتسميه أنت البقرة؟!!، ما أشد خلفكم بني أمية، لتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة، و ترد النار يا هشام بن عبد الملك...

(يضحك هشام...)

- حري بابن أمة أن لا يحسن التحدث مع الملوك...

-كان نبي الله إسماعيل ابن أمة فأتاه الله النبوة، وأخرج من صلبه خير البرية الخاتم صلي الله عليه وسلم، ومن كان جده مثل جدي لايقصر به أن يكون ابن أمة، يا ابن طريد مدينة رسول الله...

يلجم الصمت، والعي لسان هشام، ولا يستطيع ردا، ويظهر عليه الغضب، خاصة وقد سمع كل أفراد البلاط كيف تحدث زيد ...

-استدعيتك يا زيد كي أحذرك أن تنال من رأسك أوهام نالت من رأس جدك الحسين، فتلقى رأسك مصير رأسه...

الزم بيتك يا زيد، ولاتخرجن منه إلا مصليا...فبلغني أنك تحدث الناس عن حكمنا بما لا يرضينا، والناس عقولهم في آذانهم، يجاوبونك، ويدعون مسانتدك،

وحين يجد الجد، و تسل السيوف يهربون كالجرذان إلى جحورهم، فلا تغتر يا زيد، ولاتخدعنك جموع العوام، كما خدعت من قبل جدك الحسين...لاتبيتن ليلة في دمشق، ولتنصرف إلى المدينة و إياك والخروج، أو لقاء الناس (يلتفت إلى الحاجب)

-أخرجوه ...

"8"

العام الحادي والعشرون بعد المائة - المدنية المنورة...

"خدمت سيدي زيد عشرين عاما، لم أره إلا على هذه الحال من العبادة، أشفق عليه، وأبكي فى بعض الليالي من طول بكائه، بعد تلك السفرة المشؤمة إلى دمشق، وهؤلاء الجند لا يبارحون جدران الدار، لايخرج سيدي سوى لضرورة، منع تلامذته من زيارته، ومنع هو من ارتياد المسجد إلا لصلاة الفريضة، إلى متى سيظل هذا الحصار الذى يفرضه هشام بن عبدالملك على سيدي ..." (يسمع طرقا ضعيفا على الباب)

-من ياتراه هذا الطارق في تلك الساعة المتأخرة من الليل..؟!.

-من؟

- النعمان بن ثابت.

-أبوحنيفة ...وما الذى أتى به من الكوفة...

يسرع الخادم بفتح الباب متعجبا من سماح الجند لأبي حنيفة بالمرور ...

-كيف أفلت؟

-الأمر يطول شرحه يا جعد...

-أين سيدي زيد؟ نائم؟

-وهل تذوق عين سيدي المنام؛ هو ذا مقيم في حجرته مصليا، أو مناجيا ربه، يصوم الدهر منذ تلك الزيارة لدمشق...

-عل الله يعجل الفرج يا جعد...فلتأذن لي في الدخول على سيدي زيد...

-نعم ...(يدخل إلى حجرة داخلية، ويسرع في القدوم)

تفضل سيدي أبا حنيفة...

-سيدي زيد، بئست أرض لستم فيها سيدي الإمام (ينكب على يد الإمام مقبلا)

-مرحبا يا أبا حنيفة، منذ طردك من المدينة إلى موطنك الكوفة وانقطعت أخبارك...كيف استطعت الولوج إلى الدار وسط كل هذا العسس، والجند؟

-رئيس الشرطة سمح لى بذلك...

-هو من شيعتنا المحبين...

-نعم علمت ذلك، قابلته وهو يتحرق شوقا لخدمتكم...

-يريد ترك خدمتهم، ولكن وجوده فى منصبه، وولاءه السري لنا ييسر علينا الكثير من العنت...

-لله در أبي محمد بن مفلح ...

-سيدي الإمام جئتك رسولا من الكوفة فالرؤساء، وذوي البصائر، وأهل الحل، والعقد، ينشدون بيعتك يا سيدي...

-بيعتي، ولكنك يا أبا حنيفة تعلم أهل الكوفة، والعراق، وما فعلوه مع جدي الحسين...

-أعلم سيدي، وأعلم خطورة الأمر، وخورهم حين تدلهم الخطوب، وإن سألتموني المشورة، لأشرت عليكم بعدم جواب دعوتهم...

-ولكن ظلمهم قد فاق كل حد، قتل الصحابة، والتابعين، سب آل بيت النبي على المنابر، تأخير الصلاة عن ميعادها ، تفشي البدع، والمجاهرة بالمعاصي فى نواديهم، وقصورهم، أخشى على الدين من الضياع يا نعمان...(يطرق نعمان بن ثابت حزينا)

-يا أبا حنيفة أصبح القيام واجب الوقت، دماء آل البيت هي دثار هذا الدين، ووجاءه، لابد من حفظ هذا الدين بدمائنا، سنة جدي النبي وجدي علي وسبطاه، ومصيري يا أبا حنيفة...(يجهش أبو حنيفة فى نحيب مر...)

"9"

العام الحادي والعشرون بعد المائة -دمشق- القصر الأموي.

"أن تنفتح عيناك على الحياة، فلا تسمع أذناك سوي اللعن المعلن، والمضمر... الحجاج،...الحجاج...سيف الأمويين الفاتك الصارم...بدون الحجاج ما استمر حكم المروانيين سنة...عواصف هوجاء، ثورات في كل أنحاء الدولة المترامية...خوارج... شيعة...زبيريون...كلهم يرمي بني أمية من قوس واحدة...كل أولئك يشتتهم الحجاج بعسفه...يقتل الصحابة والتابعين...

والعباد...يحاصر مكة ...ويضرب الكعبة بالمنجنيق...ويحرق الحرم...ويحول نخل المدينة إلى شواهد للصلب...الحجاج...الحجاج...عمي الرهيب، مصدر السطوة واللعن في آن..."

-يوسف بن عمر الثقفي...يستأذن أمير المؤمنين للمثول بين يديه...

يدخل يوسف، ويركع أمام هشام بن عبدالملك...

-انهض يا يوسف...

-السمع السمع، والطاعة يا أمير المؤمنين...

-الكوفة يا يوسف، كرة النار الملتهبة أبدا، لم يفلح في

إخمادها غير عمك...

- وقى الله أمير المؤمنين شرها...

-شرها المستطير يمنعني النوم، وتكاد نيرانها أن تطال قصري هذا، الأخبار متواترة عن جمع كلمتها لزيد بن علي...

-و أين خالد القسري...؟!

-لا تردد هذا الاسم أمامي يا يوسف لا يشغله سوى سطو

الأموال و جمعها...

(ينادي الحاجب ويهمس إليه...وبعد ثوان يأت بقرطاس مختوم.)

-يا يوسف بن عمر الثقفي هذا صك بعزل خالد القسري و توليتك...

-السمع والطاعة...

-أريدها حجاجية...الدعوة لزيد تتخطى الكوفة إلى المدائن، والبصرة، وواسط، والموصل، والرى، وخرسان، وجرجان؛ حتى الجزيرة لم تخلو من الدعوة لقيام زيد...

- إلى تلك الدرجة، ولايزال زيد محاصرا في دار أبيه بالمدينة...

-تلامذته في كل مكان يا عمر، الزهري،...شعبة،...محمد بن مسلمة، والعشرات يجمعون البيعة في كل الأمصار لسيدهم...ورأس الأفعى النعمان بن ثابت هو

المتولي كبر هذا الأمر...عينك لا تبارحه هو المدبر الأكبر بدونه تسقط دعوى زيد...

الذهب يا عمر ثم السيف...!

-ونحن بنو ثقيف لا نجيد سوى ذلك...!

"10"

العام الثاني والعشرون بعد المائة هجرية-الكوفة- .

قصر الإمارة...

"الكوفة...الكوفة...ذلك البحر الهائج، والجمر المشتعل، ها قد ألقى بك هشام بن عبد الملك في أتونها المشتعل، يريدها حجاجية، ويريدني حجاجا، كيف والزمان غير الزمن يا يوسف...؟!، عرش بني امية المشيد من الجماجم ، وأنهار الدم، فلتأخذ دورك في هذا الصف الملعون الحكم بن مروان، زياد ابن أبيه، شمر بن ذي الجوشن، يزيد القرود، الحجاج...من شذ قتل بجنود من عسل، فعلها معاوية الثاني بن يزيد، توهم قدرته إرجاع الأمر لأهله، احتجب في قصرة بضعة أسابيع، ثم...ثم خرج جثة لشاب لم يتم عقده الثاني...طريقان يا يوسف لا ثالث لهما إما الحكم، أو القتل...، إما اللعن، أو المدح...فلتخمد هذا الضمير، ولتقتله يايوسف، قدرك أن تكون حجاجا؛ لا يغالب أحد قدره...فلتشتعل الكوفة، ولتخمد نيران العراق إلى الأبد..."

(الحاجب...يعلن مقدم النعمان بن ثابت...)

-فليتفضل...أهلا بفقيه العراق أبي حنيفة النعمان...عمرة مقبولة، وزيارة موفقة...

-أدامها الله للمؤمنين...

-ومن قابلت في المدينة يا نعمان...

-علماء المدينة، مشايخي، وأقراني...

-والإمام...؟!

-كيف والجنود حول داره يمنعون الناس من دخولها...

-قد أمرت بقدومك للنظر في أمر الأمير المخلوع خالد القسري، سجين قصرنا، وللحكم فيما انتهبه من أموال المسلمين...

-وهل من بينة أو إقرار، أو شهود عدول ؟

-لا بل هو الظن...؛تنقب جدران بيت المال، وتسرق الأموال يوم توليتي...!!

- الظن لا اعتبار له في أحكام الشرع يا أمير...

-فإما بينة، أو قرينة، أو شهود عدل...

- أحسنت...القضاء في حاجة إليك...ومن لقضاء العراق سوي أبي حنيفة، قاضي قضاة العراقين أبي حنيفة النعمان...

-تعلم انشغالي...

-فيم؟! (يضحك ضحكة ماكرة) في إلقاء العلم، أم جمع البيعة لزيد بن علي...!!

"11"

العام الثاني والعشرون بعد المائة...-خرسان-...

فارسان ملثمان أضناهما متابعة الرحيل على مدى ثلاث ليال، مكابدة الصحراء من الكوفة لخرسان أمر لا يستطيعه سوى خائف، أو عاشق...ما بالك وقد اجتمع المقامان، الخوف من مكابدة البطش في سجن الكوفة المنيع، وعشق المريد لمراده...أربعة أشهر سجن، وتعذيب لجسد منهك، شفه الحب لآل بيت محمد...هجوم مباغت من أتباع الإمام زيد يخلص النعمان بن ثابت من ظلمة الأسر في سجن حجاج الوقت يوسف بن عمر الثقفي...

يسفر الفارسان عن وجههما في حجرتهما بأحد خانقاوات خرسان، أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى...

-فلتنم قليلا يا نعمان، منذ تخليصك من سجن الكوفة، ولم يغمض لك جفن...

-العجز يا ابن أبي ليلي...الأمانات تكبلني، مازلت على

إصرارك في عدم تحمل الأمانات عني، وتسليمها لذويها...

- لست كفؤا لها ...(يقاطعه أبو حنيفة محتدا)

-مجرد حجة واهية يا محمد...

-لن أتركك تلقي بنفسك في أتون هلكة...

-أأترك الإمام وحده...؟!

-أنت رجل فقه، و سياسة يا أبا حنيفة...لست رجل سيف و سنان...

-وهل كان ذاك التقسيم محل اعتبار في عهد النبي يا بن أبي ليلي يا مجتهد الكوفة، و إمام العراقين كان صلى الله عليه وسلم رجل حرب، وسياسة، ونظر، واجتهاد، وفوق ذلك كان نبيا يوحى إليه...

-كان نبيا نموذجا للإنسان الكامل...

-ونحن نحاول اقترابا من الكمال...

-يا أبا حنيفة مع الإمام زيد رجال الحرب، والسياسة كثر بالمئين، أنت حامل فقه الإمام زيد يا أبا حنيفة، وأنت مرصود من كل عيون، و عسس بني أمية، لن ينس طاغية الكوفة أهانته، وتقريعه، وسبه ووالديه من قبل هشام بن عبدالملك بعد فرارك عنوة من سجنه...قد وفيت عهدك مع الإمام، فديوانه مائة ألف من خرسان، وجرجان، والري،

ومثلهم من الكوفة، والبصرة، والجزيرة... ثمار دعوتك لآل البيت، ولإمام الوقت زيد بن على، فكنت يا نعمان أبلغ لسانا، وأفقه داعيا...

تنفجر أصوات تكبير من كل طرقات، ومساجد خرسان، يخرج بن أبي ليلي من الحجرة...وما يلبث أن يعود مسرعا...

-الله أكبر...وصل الإمام زيد الكوفة، وأعلن القيام...إنها ثورة الإمام زيد بن علي بن الحسين...

-فليكن قدر الله، يا محمد ابسط عذري للإمام، واذهب لابن عمي في جرجان، وخذ منه ثلاثين ألف دينار هي كل ثروتي، واعطها للإمام، تالله كم يشبه خروج الإمام زيد للكوفة خروج جده النبي محمد لبدر...

"12"

العام الثاني و العشرون بعد المائة...-المدينة المنورة- أمام قصر والي المدينة محمد بن هشام المخزومي.

على نصف جذع نخلة من نخيل المدينة، تغير لونها من جراء سيلان دم أبي محمد بن مفلح -رئيس شرطة المدينة- المصلوب؛ والذي يعاني سكرات الموت، يحدث هدهد جذع النخلة قائلا...

-لله ما أنت فيه يا عمتي النخلة، هكذا تتعطرين بدماء هذا الشهيد الشهم...

- نعم، وتعطرت بدماء الكثير، والكثير فكم صلب على جذعي من صحابي، وتابعي، وولي...من يوم الحرة لليوم...كم سمعت أناتهم، وشكواهم لربهم...

-ولكن الكل يختلفون عن هذا المصلوب...

- نعم، صدقت ولشد اختلافه عنهم...يفدي بنفسه الإمام زيد وهو يعلم ما سيجره ذلك عليه...

-كم ناشده الإمام أن لا يفعل...

-كم ناشده...وهل كان سيستقيم أمر خروجه بدون فعلة أبي محمد...؟

-لا أظنه كان سيستقيم...فالجند كان قد أحكم الحصار، وكان هشام يدبر

لقتل الإمام، فموجات مبايعته عمت كل المشرق، فكان لا بد من سرعة إنفاذ الأمر...

-نعم، يلبس أبو محمد لباس الإمام، وينام في فراشه، ويلبس الإمام لباس رئيس الشرطة، ويخرج ملثما وسط جنود بني أمية...

-يرفع صوته بكلمة سر الليل التي لقنها له أبو محمد...

-يحييه الجنود أجمعهم، ويخلون الطريق للإمام...

-فعلها من قبل جده النبي عليه الصلاة والسلام، وجده علي ...

- وكلما نظر الجنود من خصاص باب الدار ظنوا الإمام مستقرا في سريره...

-ومع شروق الشمس كان الإمام قد غادر حدود المدينة...

-رحمك الله يا أبا محمد...

-رحمك الله يا أبا محمد...

يجود رئيس الشرطة بأنفاسه الأخيره، ويغمغم واهنا مسمعا نفسه، والله لو كان لي ألف نفس لجدت بها لنصرتكم آل بيت محمد، (يلوح من بعيد رجل يرتدي عباءة خضراء، يقترب رويدا رويدا من جذع النخلة، يخلص الرجل الجليل أبي محمد من صلبه، يستحيل دمه مسكا زكيا، ينتشر ضوعه في أنحاء الكون، يخلع عباءته الخضراء، ويضعها على كتف أبي محمد، يهلل فرحا، وهل استحق مجيئكم يا رسول لله؟!، يبتسم النبي، ويربت على كتف أبي محمد ثم يأخذ بيده، فيتنزل البراق الشريف من السماء، فيركب النبي ثم يردف أبو محمد بن مفلح خلفه، ويعرج رويدا حتى يبلغ عنان السماء.)

يرتفع صوت الهدهد، والجذع بالتكبير، والتهليل...

"13"

العام الثاني والعشرون بعد المائة - مسجد الكوفة-...

(الإمام زيد على منبر جده، وقد امتلأ المسجد، والشوارع المحيطة بشيعته)

"إنها الكوفة... يازيد!!...الكوفة...أتخاف من الخذلان؟! ...أن يفعلوا معك فعلهم مع أبيك الحسين، وجدك علي؟! حلفوا بالأيمان المغلظة لك على الجهاد بين يديك...قد سبقت أيمانهم المغلظة مسامع أبيك وجدك...! ولكن حفظ دين جدك المصطفي من الضياع، والتحريف، ألا يستحق أن تروي شجرته بدماء النبوة السارية من جدودك...تأخير الصلاة عن وقتها ألا يستحق...؟ تلك البدع الغلاظ التي أحدثها ملوكهم...قتل الصحابة والتابعين...؟! هو الرزء الذي بشر به النبي آل بيته..."

يقوم الإمام زيد على منبر جده علي خطيبا...

- إن الحمد لله نحمده على نعمة الإسلام الصحيح، والقرآن الفصيح، وجدي النبي الخاتم الناصح النصيح، قوم المعوج، و كان سراجا أزال الظلام الداجي، وقوم الميزان، وأدى الأمانة للأنام أما بعد، ألستم تعلمون أنا وُلد نبيكم المظلومون المقهورون فلا سهم وفينا، ولا تراث أعطينا،وما زالت بيوتنا تهدم، وحرمنا تهتك،

و قاتلنا يعرف، يولد مولودنا في الخوف، و ينشأ ناشئنا بالقهر، ويموت ميتنا بالذل.

فرض الله عليكم جهاد أهل البغي، والعدوان من أمتكم، و فرض نصرة أوليائه الداعين إلى الله، والداعين إلى كتابه "فلينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز" إنا قوم غضبنا لله ربنا، ونقمنا الجور المعمول به، ووضعنا من توارث الإمامة والخلافة، و يحكم بالهوى، ونقض العهد،و صليت الصلاة لغير وقتها، وأخذت الزكاة من غير وجهها، ودفعت لغير أهلها، ونسكت المناسك على غير هديها، و أزيلت الأفياء، والأخماس، والغنائم، ومنعها الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، وعطلت الحدود، وحكم بالرشا، و الشفاعات، وقرب الفاسقون، و مثل بالصالحين، ووسد الأمر لغير أهله فخون الأمين، وأمن الخائن، وسلط المجوس، وخلد المؤمنون في المحابس، وجلد الصحابة، و التابعون، وأمر بالمنكر، ونهي عن المعروف..."

تتعالى الأصوات خارج المسجد فينصت زيد، فيدخل نصر بن خزيمة قائد جند زيد...

- يا إمام قد حرق جنود يوسف بن عمر بيت جدك علي و هدموه...يتعالى الصياح، و التكبير في المسجد، وينزل زيد، وتخلي له الجموع طريقا، وإذا بجنوده في انتظاره مدججين بالسلاح، متوجها نحو منزل جده المهدم...

"14"

العام الثاني والعشرون بعد المائة -قصر الإمارة الكوفة-...

ينادي الحاجب:-

-رسول سيدنا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك...

ما أن يسمع يوسف بن عمر الاسم حتى ينتفض قائما، يستلم الرسالة من الرسول يضعها على عينه ثم يفض خاتمها، ويشرع في القراءة...

"من أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك إلى الغافل المقصر يوسف بن عمر أما بعد...

فلقد أرسلتك إلى الكوفة أميرا مبتغيا نصرتك فما أتيتني إلا بخذلانك، فانشغلت بثاراتك مع خالد القسري، ونهب ماله، وانشغلت عن زيد بن على حتى التهمت نيرانه العراقين، وما وراء النهرين، وامتدت إلى الحجاز، و القريتين، فما تنتظر يا غافل أن تدهمني ناره بدمشق؟...فما أشبه اسمك بعمك الحجاج بن يوسف الثقفي، وما أشبه رسمك، وما أخيب تدبيرك، وعقلك...بلغني أيها الغافل تحرك جيش زيد من خرسان في عشرين ألف فارس مدجج بالحديد من ذؤابة

رأسه إلى إخمصه؛ وقد خرج من الشام جيشا لحظة خروج رسولي إليك، فلترمي بهذا الجيش جيش خرسان ليحول دون نصرته لزيد...أما أهل الكوفة فسلط عليهم جيوش الذهب والرهبة، فإن استناموا فسل السيوف على رقابهم الخبيثة، ولتنسهم وساوس الشيطان، ولتحرق عليهم دورهم، ولترسل إلي رأس زيد، وإلا أتيتك، وسلبت كتفيك رأسك أنت يا يوسف الخيبة، والغفلة..."

يطوي عمر الرسالة، ويكلم رئيس شرطة الكوفة...

- إلي برؤوس القبائل...

-كيف يا سيدي وهم جميعا في حوزة زيد...

يشير يوسف إلى الحاجب فيدخل عبيد بصناديق يصفونها في بهو قاعة الحكم...

-هم في حوزة زيد أعلم ذلك،...ولكنهم بتلك الصناديق سيكونون في حوزتي...

-فهمت يا سيدي...

-أرسل لكل رأس قبيلة ألفي دينار ذهبي مرواني، وأخبرهم بأن يأتوا لقصر الإمارة ليتسلموا بقية اعطياتهم لا تخبرهم إلا بذلك، ولا تتحدث إليهم في أمر زيد، وإن حدثوك...

- هذا عن الرؤوس فماذا عن الذيول...

يسل يوسف سيفه ويصرخ:-

-ما للذيول غير هذا، ولعمرك هذا مآل الرؤوس بعد حين ...

"صفر"

يجلس الحواريون حول مائدة المسيح، يناولهم المسيح خبزه يأكلون، ثم يجلس السيد حزينا، تستحيل الخبزة في يد أحدهم دما، يمسح يهوذا الدم سريعا حتى لايراه السيد ، يحول المسيح ناظره سريعا عن يهوذا، ويسرع قائما يأتي بآنية من ماء، ويمسح أيديهم، وأرجلهم، وحينما يصل إلي يد يهوذا يبالغ في مسح يديه...

"15"

ينتفض الإمام زيد من نومه مستعيذا...

"كم من يهوذا يحيط بك يا زيد ..."

يدخل نصر بن خزيمة...

- ما الخبر يا نصر؟

- رؤوس القبائل، وأهل الحل والعقد من شيعتكم يطلبون مقابلتكم...

- هل سمعت صوت الذهب المرواني في ثيابهم يا نصر؟

- لا أفهم سؤالكم فديتكم بروحي...

- ستفهم يا نصر... أدخلهم ريثما أفرغ من الصلاة...

يدخل رؤساء القبائل على الإمام زيد، بغير الوجه الذي قابلوه به يوم بايعوه... فقال أحدهم...

- ما تقول في أبي بكر و عمر؟

- ما سمعت أحداً من آبائي تبرّأ منهما، ولا يقول فيهما إلا خيراً... فصاحوا بأجمعهم:-

- إنك لم تطلب بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبا على سلطانكم فانتزعاه من أيديكم.

- إن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنّا كنا أحق بخلافة رسول الله من الناس أجمعين، وإن القوم استأثروا علينا، ودفعونا عنها، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، قد وُلوا فعدلوا في الناس أجمعين، وعملوا بالكتاب والسنة...

- إذا لم يظلمك أولئك فلِم يظلمك هؤلاء، فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين؟

- إن هؤلاء ظالمون لي، ولكم ولأنفسهم؛ وإنما ندعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، وإلى السنن أن تُحيى، وإلى البدع أن تُطفأ، فإن أنتم أجبتمونا سُعدتم، وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل.

- لست أمامنا إذا، وإمامنا هو جعفر الصادق.

- إذا فقد رفضتموني؛ و أردتموها حسينية...لا حاجة لي بكم...وستبكون حينما تحز رؤوس، وتسبى نساء، وتسيل دماء...ما اشبهكم ببني إسرائيل؛ يبكون حينما لا يجدي البكاء.

ينصرف القوم من مجلس زيد ؛ تسيل الدماء من جيبوبهم،

يغمم زيد صل اللهم على نبيك المسيح بن مريم.

- هل فهمت يا نصر؟

-نعم، ياسيدي، ولكني أقاتل بين يديك حتى أقتل...

- لا وقت لدينا، فلتعلن الجهاد الساعة...

-أفعل يا سيدي...

يفرغ الإمام من ركعتين، بعدما اغتسل ،ثم يأمر خادمه بأن يأتي بلأمة جده المصطفي، وسيف جده علي، وخوذة جده الحسين، ومصحف أبيه زين العابدين... "16"

كلمات تطير في كل أنحاء الكوفة شوارعها،أزقتها، حاناتها، مساجدها، مزارعها، أسواقها ...لها طنين كدوي الزنابير صم الآذان و أرمد العيون ...كلمات عن جيش الشام، و جند الشام، وعن قتلى في كل مكان، وأشلاء...عن نساء تسبى...عن ذراري تقتل...فلم يبت كوفي إلا و عقله يسكن أذنه...

وتنادى المنادون...

-يا أهل الكوفة، يدعوكم الأمير يوسف بن عمر إلى مسجد الكوفة العظيم، ومن لم يلب فقد برأت ذمة الأمير من دمه...

ترتعش العروق في الأجساد، وتخفق القلوب رعبا، وتطير النساء إلي الشوارع ينادين على أطفالهن، ويدخلهن الدور ويغلقن الأبواب...ويهرع الرجال إلي المسجد الأعظم...و الجند قد أحاط بالمسجد، ولم تبق فرجة إلا وعليها جندي ولم يبق شبر إلا وعليه عين...يدخل الرجال محنيي الرأس إلي المسجد الأعظم حتى امتلأت باحته، وفناءه، و غلقت الأبواب، ومنع الجند الناس من مبارحة المسجد...

غلقت المتاجر، والأسواق، ومنع التجوال، وجمعت الأسلحة من أيدي الرجال... وهيمن صمت القبور على الكوفة...

"17"

الأربعاء، الأول من صفر، العام الثاني والعشرون من الهجرة...

يشق ظلام ليل الكوفة أول شعاع شمس غرقت في كوابيس ليلة طويلة، شعاع نور خجول، خجل من تورط في شهادة أجبر علي أدائها عنوة، يستحيل ظلام الشرق إلى حمرة دموية عميقة، عمق أحزان آدم حال طرده من جنته، والإمام مستغرق في تسبيح متصل من عشاء أمس، ليدخل عليه خادمه مخبرا إياه بأن رجلا شيخا من بني نهد بن كهمس يريد تقديم هدية له، يإذن الإمام للشيخ المثول في حضرته...

يدخل الرجل على الإمام، وقد أحنت السنون قامته ...

- فداك روحي يا إمام...

يقوم الإمام مستقبلا الشيخ...

- فلتتفضل بالجلوس يا أبتاه...

- كم وددت أن أقاتل بين يديكم كما قاتلت بين يدي المختار الثقفي يا إمام... ولكنها السنون...

- ليس على الضعيف حرج يا أبتاه...

-ولكني قد اشتريت لكم برذونا بكل ما أملك يا إمام...لعلي أوفي بمالي ما عجزت عنه بجسدي...

- هدية مقبولة يا أبتاه...

- نصركم الله كما نصرت دينه يا إمام...

يظهر صوت نصر بن خزيمة في فناء المنزل...ليستأذن الشيخ في الانصراف...

يمثل نصر بن خزيمة بين يدي الإمام...

- كم رجل وافى بيعتنا يا نصر؟

- لم يوف غير مائتين وثمانية عشر رجلا يا إمام.

- سبحان الله! أين الناس؟

- إنهم محصورون في المسجد الكبير...

- و الله ما هذا لمن بايعنا بعذر...

يخرج الإمام زيد مرتديا لأمة جدة صلى الله عليه وسلم، متمنطقا بسيف جده الكرار علي، تعلوه خوذة جده الحسين...

يخرج الإمام لجنده ، راكبا برذونه الأسود...

- أما بعد،

أيها الناس، انصروني على أهل الشام فوالله لاينصرني رجل عليهم إلا أخذت بيده حتى أدخله الجنة، والله لو علمت عملا هو أرضى لله من قتال أهل الشام لفعلته، فاثبتوا ثبتكم الله، و لاتتبعوا مدبرا، ولاتجهزوا على جريح، ولاتفتحوا بابا مغلقا...

يصيح نصر بن خزعة " يا منصور...يا منصور أمت..."

ترج أصوات جند الإمام الكوفة في طريقها نحو المسجد الكبير لفك الحصار عن أهله...ليتصدى لجنده نحو خمسمائة جندي من جند يوسف بن عمر الثقفي... يحمى وطيس المعركة، وتحصد سيوف جند الإمام رؤوسهم، ولا يقوى أحد على الصمود أمام سيف علي في يد ابنه زيد...وفي ساعة أو أقل ينكشف جند يوسف بن عمر ويلوذون بالفرار، تاركين الطريق مفتوحا للجامع الكبير...

يصيح الإمام زيد مشيرا لجنده بالتقدم نحو الجامع " يا منصور أمت"، يتقدم جنده نحو الجامع ليفكوا الحصار، تدخل رايات زيد من نوافذ الجامع، ويخطبهم نصر بن خزعة :-

- يا أهل الكوفة اخرجوا من الذل إلي العز، ومن الضلال إلي الهدى، اخرجوا إلي خيري الدنيا والآخرة فإنكم والله لستم على واحد منها...

ينضم القليل من المحاصرين إلي جيش الإمام، وينصرف الكثير، مقدمين أعذارهم للإمام، منهم من تعذر بالذهاب للإتيان بسلاحه، منهم من تعذر بضرورة الذهاب لرؤية أهله....،

بعد أن يقضى على الحصار ينتشر أصحاب، وجند الإمام في أنحاء الكوفة بغية تطهيرها من جند يوسف بن عمر؛ ينادي مناديهم...

من ألقي سلاحه فهو آمن، و أخذوا في تطهير الكوفة من جنود الأمويين في مناوشات متفرقة...

"18"

الخميس، الثاني من صفر، العام الثاني والعشرون بعد المائة من الهجرة...

أخذت الجبال، والسموات، والأرض، والأشجار في تسبيح غريب باكي، تنعي ذكريات ترسخت في ذاكرتها، تتذكر قدمي النبي الدامية يوم الطائف، هامة علي المنشطرة فجر استشهادة بمسجده بالكوفة، وحدة الحسين يوم كربلاء، تجتمع مشيرة الديوان الروحي زينب بنت علي بالأوتاد، والأقطاب، والنجباء، والأولياء، يطلعون على اللوح و يضجون في تسبيح باكي...

يجتمع جبريل بملائكة السماء الدنيا و قد تأهبوا للقتال ،

ويلهم الجميع الأمر...

"دعوا القدر للمقدر ، كتب الرزء على آل محمد..."

تنسجم كل مفردات الكون في بكائية تلتقطها آذان الطيور، فتنشدها مع شعاع شمس متسلل رويدا ليقتحم جيوش الظلام الجاثمة على أنفاس الكون الباكي...

ينفتل جيش زيد من تسابيح صلاة الصبح...، ليلبس كل جندي -جلهم - من تلامذة زيد من الفقهاء، والقراء -...كفنه تحت دروعه...

يرتدي زيد قميص هروي، وتتعالى التكبيرات، "يا منصور أمت..."

يبعث يوسف بن عمر بجيش قوامه ثلاثة آلاف من مدد أرسل إليه إلي "دار الرزق" حيث معسكر زيد...

وينظم زيد جنده على ميمنته نصر بن خزيمة، وعلى ميسرته معاوية بن إسحاق الأنصاري...

جنود زيد في تناقص، وجنود الأمويين في تزايد...

يشتد القتال، ويستبسل جند زيد في قتال ذكر الجميع بيوم كربلاء، لا يقوى أحد على مواجهة زيد، يتحاشاه الجميع فلا يكاد يثبت له أحد؛ ما هي إلا ضربتان من سيفه ولا تكون الثالثة إلا بصريع من جند الأمويين، الهلع، والخوف يحارب في صفوف الإمام، ويصيب عدوه في مقتل، فيصيح العباس بن سعيد صاحب شرطة الكوفة،

"الأرض..الأرض..."فيترجل فرسانه ليحيطوا بجيش زيد...تتداخل السيوف، والرماح، ويعلو سيف علي سيوف البغي...

فيضرب نائل بن فروة نصرا بن خزيمة ضربة بسيفه فتصيب فخذه، يصرخ نصر ويضربه بسيفه فيقتله...ولكن جرح نصر ينزف نزفا غزيرا، لينقله الإمام إلى خيمته، لم يعد في رمق نصر إلا أن يلهج بالشهادة، يقبض على كف زيد ويقبلها...

-أتراني قد وفيت يا إمام...؟

- وفيت، وزدت يا نصر...

- فلتشهد لي في حضرة جدك، لم أعش حياتي إلا لنيل تلك الشهادة...وتشخص عينا زيد مرحبة مستبشرة...

- طبت حيا وميتا يا نصر موعدنا الحوض...

وينطلق زيد كليث جريح يطيح برؤوس، وأيد، و أعقاب...ويرعد صوته " يا منصور أمت".

تنهدم صفوف الأمويين أمام العشرات المتبقية من جند زيد، يأمرهم قائدهم بالانسحاب إلى أقرب نقطة من قصر إمارة الكوفة...تعلو تكبيرات جيش زيد فتصم آذان البغي والجبن...

يرتعد عمر بن يوسف الثقفي حينما ترده أخبار اندحار جيشه، يستأذن عليه جندي يصل لتوه من حدود خرسان.

- مبشر أم نذير سوء...؟!

- جند أمير المؤمنين في معارك طاحنة مع الخرسانين أتباع زيد، إلي الآن يا أمير قد عطل وصوله لمناصرة زيد، يقاتلون كأسود جريحة، وقد تطاير اسم شاب في سماء المعركة يدع أبو مسلم الخرساني يعد جيش الخرسانين باقتحام دمشق عن قريب، بكلمة منه تشتعل أرض المعركة، يقاتل كشيطان، يظهر من حيث ظننت الأمن فيحيل الأمن خوفا والحياة موتا...

- (يطرق يوسف ابن عمر ويهمس لنفسه) تنبت الأرض بأعداء بني أمية كما تنبت بالعشب البري، إلي متى نقاتل في كل صوب وحدب، وحينما نطيح برأس تنبت المئات هاتفة "يا منصور أمت."

- بلغ أميرك بضرورة الصمود ليوم آخر، وسوف يصلك جند الحيرة والبصرة... يوم واحد...ثم يهمس لنفسه" لو وصل جيش الخرسانين إلى العراق سيصل حتما إلي دمشق حيث ينام ابن عبد الملك..."

يدخل الحاجب مع عبيد يوسف بن عمر ليرتدي دروعه...

وفي عشية اليوم يخرج يوسف بن عمر في جنده المتبقية من مواجهات أمس واليوم، يقاتل يوسف ومن معه قتال اليائس ومع ذلك لايثبتون لجيش زيد، يكشفهم في "دار الرزق" ويتنقل القتال حتي يصلوا إلي "السبخة" ليشتد القتال فيها، كان الناس ينظرون إلى زيد يقاتل يوم السبخة، وعلى رأسه غيمة تدور معه حيث دار...والتقى زيد مع يوسف بن عمر الثقفي فلم تكد عينا يوسف تقع على سيف علي حتى يلوذ بالفرار محدثا جلبة، مثيرا غبارا، فتكون الدبرة على أصحاب يوسف بن عمر بعد أن يقع مشهد فراره موقعا مثبطا كقتله أمام أعينهم سواء بسواء...

يطاردهم زيد وجنده حتى يخرجوهم إلي" بني سليم "

فيلجأوهم إلى طريق "المسناة"...

يصيح جند الأمويين وقد أكلتهم الحرب، فيسبوا فاطمة الزهراء، فينال الغضب من زيد فيبكي حتى تبتل لحيته ويلتفت إلى جنده، ويصيح:

-أما من أحد يغضب لرسول الله وينشد:-

-أذل الحياة و عز الممات؟

وكلا أراه طعاما وبيلا

فإن كان لابد من واحد

فسيري إلى الموت سيرا جميلا...

وينطلق جيش زيد يهد في صفوف جند الأمويين هدا... لايقوي أحد على قتالهم...

يأمر يوسف بن عمر جنده بالتترس خلف الكثب، و الجدران ليمطروا جيش زيد بوابل لا ينقطع من السهام، و النيران...فلا طاقة لهم على مواجهة السيف فليكن رمي السهم...في مشهد حسيني كربلائي لا تمل الأيام من تكراره...

و أخذت الشمس تميل في غروبها نحو الأفق، آملة في وعد، مرغبة في رجاء، لتختفي رويدا، تربت بشعاعها المحتضر على رؤوس جيش الإمام، ويلقي الليل بظلامه و ينشر أجنحته على سهول، وتلال الكوفة المخزية الكئيبة الحزينة...

"19"

ليلة الجمعة الثالث من صفر العام الثاني العشرون بعد المائة من الهجرة...

جنح الليل، ولم تهدأ زخات السهام على معسكر الإمام زيد ، ليسقط كل ساعة شهيد أو جريح، وفي الجهة المقابلة يزداد الجند، ولا تنفد النصال، كل الرماة يرمون بأسهمهم، و لايدرون من يرمون...يوجهون زخات الموت لمجهول غير مرئي، لا يعلمون غير زيد الذي ضلت عنه كل سيوف القوم الذين تفننوا في حصاره الآن وجنده ، لم يفلح سيف في يد من النيل منه، فليكن الموت الطائر الأعمي الجبان إذن، هو راشد مملوك يوسف بن عمر الثقفي، يرمي كما يرمون، ينطلق السهم من وتره يقطع المسافات بين المعسكرين، لا يخطئ السهم مرماة هذه المرة، لا، يخطئ ليصيب قلب الدولة الأموية بثارات لن تنتهي مع أناس لا يهدئون إلا بنزع بنيانها حجرا حجرا انتقاما لدماء سالت من خير بيت في البرية، لا يخطئ السهم هدفه، هذا هو الإمام قائما يصلي، يخترق السهم رأس الإمام...

يصيح الإمام...

-الشهادة...الشهادة...

يسمع ما بقي من رجال صيحة الإمام فيهرعون إليه، السهم يتوسط جانب رأسه الأيمن، وتسيل دماء ابن النبي ، لتلون ثوبه، ومصلاه بالأحمر القاني...

استقر رأي اتباع الإمام على الانسحاب من المعسكر لمكان يطببوا فيه الإمام، فانسحبوا متخذين ظلام الليل ستارا تاركين عشر رماة لمناوشة الجند، ولحماية ظهورهم، لتأمينها حال انسحابهم بالإمام المصاب....إلى أن استقروا في بستان لرجل كوفي يقال له يعقوب بحي الكناسة يشقه من جانبه الأيمن نهير منبعه الفرات...

ينطلق أحد أصحاب الإمام باحثا عن طبيب، فجاءوا بطبيب يدعى شقير، لينتهي رأيه إلى أن نزع السهم من رأس الإمام سيقضي عليه...فرد عليه الإمام، وكان مايزال على رمق من وعي...

-عجل فالخير كل الخير في الرحيل...

نزع شقير السهم، وفارق روح الإمام جسده ...يبكي الحضور بلوعة شديدة، وسرعان ما تأخذهم الحيرة في كيفية موارة الجسد الشريف، فكما كان الإمام مطلوبا في حياته، فهو كذلك مطلوبا في موته...فلو طاله الأمويون فسوف يمثلون به، لذا فكانت حيرتهم شديدة...

- نلبسه درعه ونطرحه في الماء...

- بل ندفنه في النجيلة...

-نحز رأسه ونلقيه بين القتلى حتى لا يعرف...

- لا والله لا تأكل الكلاب لحم الإمام...

فقال سلمة بن ثابت لما كثر الخلاف :- بل نحجز ماء النهر من طرفين، ونحفر قبرا، حتى إذا أمكنا له، ودفناه نجري عليه الماء، فلا يعرف جند الأمويين مكان جسد الإمام...

فاستحسن الجميع الأمر وشرعوا في تنفيذه ...تفرق من بقي من جند الإمام على موعد قريب للانتقام...

وإذا بصوت ناعي لا يعرف مصدره يملأ ضواحي خرسان،وجرجان، وهمدان، والكوفة، والبصرة، ودمشق، ومكة، و المدينة، و فسطاط مصر..." ...مات ابن الاثنين والأربعين عاما، الشهيد، حليف القرآن، الإمام الأعظم، المدني، الكوفي، الناسك زيد بن علي بن الحسين بن علي وفاطمة بنت النبي. "

وإذا بالنحيب، والبكاء، والعويل يملأ بلاد المسلمين ...ويهز جدران قصر الإمارة...ويصل سريعا ليصم أذن هشام بن عبد الملك بدمشق ...ترعد السماء بصوتها الغاضب، وتهتز الأرض بدوي صاخب، وتثور البحار بأصوات أمواج كالجبال، وتعوي الوحوش في البرية بصوت يشبه البكاء...ولايبق بيت إلا وينهض من نومه مستعيذا، مهللا، مكبرا...

"20"

دفن الإمام زيد، وتفرق ما بقى من جيشه، وكانت حرارة الجمر تحت الرمال منتظرة لنسمة ريح لتشتعل، وتغطي الدولة الأموية بلهيب لا يهدأ، وحينما وصل خبر استشهاد زيد للخرسانيين، تفرق جيشهم على موعد لن يطول كثيرا ، ليدخل يوسف بن عمر الكوفة، ولكنها ليست بهيئة منتصر، فالخوف مما سيأتي وأد كل مشاعر الزهو و الفخر في قلب يوسف، ليجزم في دخيلة نفسه أنها المعركة الأخيرة، لن يهدأ الناس ولن تخمد ثورتهم، خاصة أن ما حدث لزيد هو ذاته ما حدث للحسين من قبل، لتتراكم الثارات، الكل يتسابق لحصد رأس تلك الدولة الأموية، وها هو كتاب هشام بن عبد الملك يذكره بضرورة إرسال رأس زيد، لا يريد بذلك إلا حتفه، أين المهرب من ذلك المصير يا يوسف؟ و أين سيكون الملجأ؟ وقد قرنك الناس في عقال واحد مع زياد ابن أبيه، ومع شمر بن ذي الجوشن ، و ماذا جناه عمك الحجاج إلا اللعن في حياته، و مماته إلا أنه لم يوغل في دماء أحد من هذا البيت الهاشمي المصر دائما على الثورة ثم القتل، اللعنة على هذا المصير، وهشام سادر في غيه، نشوان بخمر الانتصار الزائف...رأس زيد...رأس زيد مطلبه الوحيد الآن، فليسكت، ولايزيد النار اشتعالا ...تتسابق جنود يوسف بالعسف،

والتنكيل بكل من يقابلونه من الكوفيين...يتلقون الضربات، والإهانات بسعادة، وغل في آن، يكفرون عن ذنب لا يستطيعون التكفير عنه، ما أمهر أولئك في الندم، ينادي منادي الأمير معلنا عن مكافأة لمن يدل على جسمان زيد، وسرعان ما يأتي فلاح يمتلك بستانا بجانب بستان يعقوب بالكناسة فيخبر شرطة الأمويين عما رآه، فيبعث خراش بن حوشب بن يزيد الشيباني إلي بستان يعقوب، ويمنع وصول الماء إلي النهير وينبش القبر، ويستخرج الجسد الشريف، ويحمله على جمل في رداءه الهروي ويلقي به على باب قصر الإمارة...ويحز الرأس الشريف ويبعث معه رؤوس أصحاب الإمام...يأمر بجسد الإمام فيصلب منكوسا عاريا على جذع نخلة مع أجساد معاوية بن إسحاق، نصر بن خزيمة، وزياد الهندي، ويأمر الجند فيخفرون الأجساد، و تتابع الوفود ليرون جسد الإمام وسرعان ما تنسج العنكبوت حول عورة الإمام، فيكبر الناس فيغتاظ أحد جنود الأمويين فيزيل النسج، فتشل يمينه في الحال، وتأتي عنكبوت ضخمة فتعيد النسج في الحال، وجنود البغي، وكأن على رؤوسها الطير. وبعث الرأس لهشام فلم تبارحه الكوابيس. فأمر بنصب الرأس على القبر النبوي.

ولما نصبت رأس زيد بن علي على قبر جده بالمدينة، ضج بقية الأنصار، وأبناءهم بالبكاء، فضج من وفد على المدينة ، حتى الحجر بالطرق، ببكاء لم تسمع المدينة مثله إلا يوم استشهاد الحسين بكربلاء، هرع الناس إلى عامل الأمويين بالمدينة محمد بن إبراهيم بن هشام المخزومي، فأبى، فرفع بنو هاشم على أسطح بيوتهم رايات سوداء لم تر المدينة مثلها يوما...

"21"

العام الثالث والعشرون بعد المائة -الرصافة (المقر الصيفي لهشام بن عبد الملك).

-ليس بالحسن يا يوسف بن عمر، ليس بالحسن، فمنذ أن بعثت لنا برأس زيد، والأمور في سوء يعقبه ما هو أسوء منه...

-يا أمير المؤمنين، كنت قد حذرت من ذلك...

(يقاطعه هشام غاضبا)

- و ماذا كان علي أن أفعل، أن أترك الأمر لزيد بن علي، احترت لخورك وضعفك يا يوسف...

-كنت سيفا لكم يا مولاي وقد وفيت، ولكني نصحت نصيحة المخلص؛ أن التطواف برأس زيد ستذكر الناس بالحسين، وستزيد غضبهم، وسخطهم، يا مولاي جئتكم من نيران مستعرة أشعلها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب في خرسان، والحجاز، والعراق، دعوة للأخذ بثأر زيد و آل هذا البيت...

- محمد بن علي يختلف عن زيد...محمد بن علي رجل سياسة، ويرفع راية آل البيت لتحقيق مأربه، والدعوة لنفسه ولبني العباس ...

- وهذا مكمن خطورته يا سيدي...محمد بن علي يختلف عن زيد والحسين وعلي...هو داهية سياسة، وحرب لايبتغي غير الملك...يسير حثيثا لمطلبه، ويخدمه غضب الناس، معذرة يا سيدي وهل كان أمركم بنصب رأس زيد على قبر جده بالمدينة إلا نارا أشعلت نيرانا كنا في غنى عنها...فقد بايع رؤوس بني هاشم محمدا هذا، وخلفهم سيل من الناس، لم يبايعوه إلا بعد إرسالك رأس زيد للمدينة التي تحولت لمأتم كبير...

- آل البيت ...آل البيت...وأنا مكبل عما يحدث في المشرق بما يحدث في المغرب...البربر لايستقرون، ولا يهدأون...قتلوا عاملي على المغرب كلثوم بن عياض القشيري فما كان من قائد جيشه بلج بن بشر إلا أن فر...

- لا تطفئ نار في الغرب إلا تشتعل في الشرق...

- بل تشتعل في الشرق والغرب يا يوسف...

"22"

العام الخامس والعشرون بعد المائة - الرصافة-

سهام تتكسر نصالها على سهام، ورسل منتظرة على قصر الخلافة الأموية كنذر موت برسائلها التي لا تحمل سوى الأخبار السوداء، و عواصف لا تهدأ تهد أركان الأمويين هدا ، لا حديث في طرقات دمشق، والرصافة يعلو فوق أحاديث ثورات في الغرب و الشرق من أنحاء الإمبراطورية العربية المترامية، دعوات لثورات لا تهدأ من خوارج، وشيعة، وبربر كلهم يشرع سيفه، ويرمي بنبله على هدف واحد لا يخطأه، سويداء قلب الدولة الأموية...

يحتجب هشام بن عبد الملك في رصافته، لا تنفك تلك الرعشة المزلزلة عن جسده، وكلما حاول نوما يصحو مفزعا صارخا يلهج باسم واحد فقط "زيد"، ينتابه الظمأ القاتل، يخطو نحو الفرات الشامي يمد يده نحو ماءه الرقراق، تقترب كفيه من فيه، يكرع لإطفاء عطشه القاتل فلا يجد سوي طعم الدم، ينظر بعيدا، فيرتاع ناظره بجيش يزحف نحو دمشق على رأسه زيد بن علي مرتديا خوذة جده الحسين، وبردة جده النبي الخضراء، وإذا بسيف علي يشق رأسه...فينتفض من نومه صارخا ليحيطه بلاطه، وخدمه حتى اعتادوا على ذلك...

تتدهور حالة هشام النفسية، والصحية بتسارع يحير كل أطباء البلاط الأموي...

وفي إحدى تلك الليالي الحالكة الكئيبة يصرخ هشام بعد غفوة قصيرة من نوم، ويبدو أنه قد عجز عن التفرقة بين ما وقع في حلمه المتكرر، وما ترسخ في واقعه، فلا يفتأ يتحدث في هذيان لا ينقطع مع أشخاص غير منظورين بهمهمات غير مفهومة لا يتضح منها غير أسماء معلومة لا تخرج عن زيد، والحسين، وعلي، والنبي صلي الله عليهم وسلم...يستعطف تارة، ويرعد تارة ثم لا ينقطع استعطافه واعتذاره لأولئك...

- عفوا وصفحا فقد جهلت يا سادة...برحة من الوقت،أمهلوني...ثم يشرع في موجة مرعبة من الصراخ...يحيط به الأطباء محاولين التخفيف عنه، و لا فائدة... ليستمر صراخه حتى تهدأ أنفاسه رويدا...يخرج كبير الأطباء مسرعا ممتقعا وجهه...

- رحم الله أمير المؤمنين .

يتلقف ابن أخيه، وأقوى رجال البلاط الوليد بن يزيد الخبر، يشد بقوة ذراع الطبيب...ويهمس في أذنه ...

- إن ذاع الخبر قطعت رأسك، وجميع مساعديك...ثم يبتسم...

لن تخرجوا من قصر الرصافة أنتم في ضيافتي...

يومأ كبير الأطباء بكلتا يديه...

- نعم يا أمير...نحن تحت مشيئتك سيدي، ليدخل مسرعا لمساعدية المحيطين بجثمان هشام ابن عبد الملك...

“23 ”

يقول جرير بن حازم ” رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مستندا إلى جذع زيد بن على، وهو يقول للناس ” هكذا تفعلون بولدي، يابني زيد قتلوك، قتلهم الله، صلبوك، صلبهم الله...“

فغشى حديث جرير الكوفة وأجوارها، و كان الناس يتوافدون ليلا، يتبركون بجسده، ويصلون عنده ...

"24"

ولي 1:- سمعت أن الإمام الحسين سيرأس الديوان اليوم ...

ولي2:- نعم، لا يرأسه الإمام إلا لأمر جلل ...

ولي1:- نعم، للأمر علاقة بنصب رأس زيد على قبر جده،

ولي2:- لم يرفع النبي من سجدته أمام العرش منذ مقتل ولده زيد...

ولي1:- الملأ الأعلي اليوم في شغل عظيم...

ولي2:- هل جن أهل الدنيا...

ولي 1:- صه...قدم الحسين.

يدخل الإمام بملامحه النبيله، يكسو وجهه الشريف غلالة من غضب ممزوج بحزن شفيف، تستقبله أخته رئيسة الديوان السيدة زينب، ينتظم الديوان بتراتبيته المعهودة الأقطاب، والأوتاد، والنجباء، والأبرار، والأبدال، وسائر أولياء الأرض...

يلهم الجميع الأمر...

رأس زيد ستدفن بمصر وراء مقام جدته زينب .

انتهاء أمر بني أمية.

ينتهي مجلس الديوان .

"25"

من أمير المؤمنين الوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى والي الكوفة يوسف بن عمر الثقفي...

إذا أتاك كتابي هذا، فأنزل عجل أهل العراق، وانسفه في اليم نسفا...

فأمر خراش بن حوشب، وأنزل الجثمان، وأحرقه بالنار، و جعله في قواصر، وحملها على سفينة، وذراها في الفرات ليلا...

"26"

قتل يزيد بن الوليد ابن عمه الوليد بن يزيد بالبخراء و أرسل رأسه، وعلقها على قصر الخلافة بدمشق، ولما سمع يوسف بن عمر والي الكوفة الخبر، هرب من قصر الإمارة لعلمه بانتقام يزيد منه، وذلك لتحيزه للوليد، تنكر يوسف في زي وهيئة امرأة، وفر إلي الشام، إلا أن أمره قد افتضح فقبض عليه، وأرسل إلى يزيد بن الوليد، الذي انشغل بثورات العلويين، والعباسيين، ومؤامرات الأمويين ضده، فأمر بحبس يوسف بن عمر حتى يبت في أمره، و حينما عصف مروان بن محمد الشهير بالحمار الأموي بملك ابن عمه يزيد، أرسل لحليفه يزيد بن خالد القسري لينال من رأس قاتل أبيه كمكافأة ولاء، فدخل ابن خالد القسري السجن على يوسف بن عمر، وضرب عنقه ثم ألقى جثمانه بالطريق لتجره الأطفال من حبل ربطوه بقدمه في أزقة دمشق ...

"27"

يتسلل خمسة مصريين ليلا إلى روضة النبي صلى الله عليه وسلم على إثر اتفاق تم بينهم و بين الحرس، عشرة آلاف قطعة ذهبية فداء لرأس الإمام زيد، يستلمون الرأس في ثوب حريري أخضر، وينطلقون وفي صحبتهم الحراس الذين فروا بما جنوه من أموال خشية عسف الأمويين بهم حينما يعلمون باختفاء الرأس...

يواصل المصريون العدو بخيولهم فيغادرون الجزيرة العربية، ويجتازون إلى سيناء، حتى وصلوا الفسطاط، فبركة الفيل، ودفنوا الرأس في منطقة بين الكومين على مسافة ليست بالبعيدة من مسجد جدته السيدة زينب .

و بدأت الاحتفالات ببناء مشهد على الرأس، و أشاعوا بين الناس أنه مشهد علي زين العابدين للتعمية على الأمويين وكان معلوما للجميع أن الإمام زين العابدين بن على مدفونا بالبقيع، و كان لا يحلو لجند الأمويين غير الاستهزاء بالمصريين الذين سلب حب آل البيت عقولهم !!

"28"

ينهزم مروان بن محمد أمام العباسيين في الذاب عام 132 هجرية، لتسقط الدولة الأموية، ليهرب آخر ملوك بني أمية، و يقتل في أبي صير بالقرب من فيوم مصر ...

"29"

525 هجرية .القاهرة.

ولما بلغ الأفضل بن أمير الجيوش الفاطمي خبر الرأس، و حكايته، و كانت عاديات الزمن قد دمرت المشهد، و مسجده ولم يبق من معالمه سوى المحراب، و كان و سط أكوام التراب، ولما جدوا في البحث، و الحفر توصلوا لبقايا المقام ثم عثروا على الرأس الشريف، هامة وافرة وفي وسط جانب الرأس الأيمن ثقب بقدر الدرهم، فضمخ وعطر، وحمل إلى دار الخليفة الفاطمي، حتى عمر المشهد وافتتح باحتفالات عظيمة يوم الأحد تاسع عشر للعام الخامس والعشرين بعد المائة الخامسة من الهجرة الشريفة .

"30"

البداية

السادس و العشرون من جمادى الآخرة 1438 هجرية ذكرى قدوم رأس الإمام زيد بن على القاهرة...حي زين العابدين بالقاهرة ...

أدلف مسرعا شارع زين العابدين، خلف مسجد وضريح عقيلة بني هاشم السيدة زينب بنت الإمام علي، تأخرت كثيرا عن ميعاد الحضرة، شغلتني العوارض، والعلائق، أصل الخيمة فأجدها خالية، لابد أنهم قد بدأوا الحضرة أمام مقام الإمام زيد، أصل في بداية الحضرة، والذكر، أغيب بعيدا في عالم جديد تتبدى ملامحه رويدا رويدا...

أتمايل ذات اليسار، وذات اليمين، وارتقاء في سموات اليقين بمعراج اسمه "هو" يقذف بي في بحار المحبة المغرقة...فلا أين ولا متى و لا وجود سوى وجوده ...هو...هو...هو...

عوالم نورانية تجذبني، ليتبدى لي في لا زمان و لا مكان مجذوبا لعالم تتدافع صوره تترى أمام عيني الغائبة.

- يا أنس..

- نعم يا علي ..

-أين رسول الله؟

-صلى الفجر لتوه ،ورأيته متوجها إلى بقيع الغرقد ...

.....

"تمت"

محمد فرحات.

القاهرة.

2019، إبريل.

الكاتب في سطور :-

محمد أحمد فرحات

من مواليد 1975 ،محافظة المنوفية .

حاصل على ليسانس الأدب الإنجليزي .

أديب وكاتب ومترجم ، يكتب المقال في عدة صحف مصرية وعربية .

محرر بمجلة فصول النقدية المحكمة.

من أعماله.

سيرة الزكية والعمدة .“رواية”

قدر الله ، الإمام زيد بن علي.“رواية”

يوميات ثورة وعاشق، تحت الطبع.

تطور الفكر الإسلامي السياسي ، حلقات على صحيفة البديل .